تفسير إبن كثير

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

يقول تعالى آمرا عبيده ، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة ، بالاستعانة بالصبر والصلاة ، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض ، والصلاة .فأما الصبر فقيل : إنه الصيام ، نص عليه مجاهد .[قال القرطبي وغيره : ولهذا سمي رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث] .وقال سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن جري بن كليب ، عن رجل من بني سليم ، عن النبي صلى االله عليه وسلم قال : الصوم نصف الصبر .وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها : فعل الصلاة .قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد االله بن حمزة بن إسماعيل ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبي سنان ، عن عمر بن الخطاب - رضي االله عنه - قال : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم االله .[قال] وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر .وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، قال : الصبر اعتراف العبد الله بما أصاب فيه ،

واحتسابه عند االله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد ، لا يرى منه إلا الصبر .وقال أبو العالية في قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) على مرضاة االله ، واعلموا أنها من طاعة االله .وأما قوله : (والصلاة) فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر ، كما قال تعالى : (اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر االله أكبر) الآية [العنكبوت : 45] .وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد االله الدؤلي ، قال : قال عبد العزيز أخو حذيفة ، قال حذيفة ، يعني ابن اليمان : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى . ورواه أبو داود [عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتي] .وقد رواه ابن جرير ، من حديث ابن جريج ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبيد بن أبي قدامة ، عن عبد العزيز بن اليمان ، عن حذيفة ، قال : كان رسول االله صلى االله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .[ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة ؛ ويقال : أخي حذيفة مرسلا عن النبي صلى االله عليه وسلم ؛ وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة :

حدثنا سهل بن عثمان أبو مسعود العسكري ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة قال : قال عكرمة بن عمار : قال محمد بن عبد االله الدؤلي : قال عبد العزيز : قال حذيفة : رجعت إلى النبي صلى االله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي ، وكان إذا حزبه أمر صلى . وحدثنا عبيد االله بن معاذ ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع عليا يقول : لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول االله صلى االله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح] .قال ابن جرير : وروي عنه ، عليه الصلاة والسلام ، أنه مر بأبي هريرة ، وهو منبطح على بطنه ، فقال له : اشكنب درد [قال : نعم] قال : قم فصل فإن الصلاة شفاء [ومعناه : أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم] . قال ابن جرير : وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم ، قالا حدثنا ابن علية ، حدثنا عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه : أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر ، فاسترجع ، ثم تنحى عن الطريق ، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .وقال سنيد ، عن حجاج ، عن ابن جرير : (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال : إنهما

معونتان على رحمة االله .والضمير في قوله : (وإنها) عائد إلى الصلاة ، نص عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير .ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام ، وهو الوصية بذلك ، كقوله تعالى في قصة قارون : (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب االله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) [القصص : 80] وقال تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) [فصلت : 34 ، 35] أي : وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا (وما يلقاها) أي : يؤتاها ويلهمها (إلا ذو حظ عظيم)وعلى كل تقدير ، فقوله تعالى : (وإنها لكبيرة) أي : مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين . قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني المصدقين بما أنزل االله . وقال مجاهد : المؤمنين حقا . وقال أبو العالية : إلا على الخاشعين الخائفين ، وقال مقاتل بن حيان : إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين . وقال الضحاك : (وإنها لكبيرة) قال : إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطواته ، المصدقين بوعده ووعيده .وهذا يشبه ما جاء في الحديث : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره االله عليه .وقال ابن جرير :

معنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب ، بحبس أنفسكم على طاعة االله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقربة من رضا االله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين الله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته .هكذا قال ، والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا في سياق إنذار بني إسرائيل ، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم . واالله أعلم .